مجالس الأدب :

فى إحدى ليالى رمضان

للأستاذ كامل كيلانى

[تثبت فيما يلى نص الحوار الطريف الذى دار بين ثلاثة من أدباء مصر وشعرائها فى إحدى ليالى رمضان كما أذاعته محطة الشرق الأدنى]

١ — المعرى يصوم ويصلى

عبد الغنى : بمناسبة شهر رمضان ، هل كان كبار الشعراء — يا أستاذ كامل — يصومون ؟ وهل كان أستاذك المعرىّ يصوم ؟

كامل : ويُصلّى أيضاً .

عبد الغنى : إذ يقول فى الصلاة يا أستاذ كامل .

كامل :

« وأعجز أهل هذى الأرض غاوٍ ... أبانَ العجزَ عن خمسٍ فُرِضْنَه »

ولكنه يريدها صلاة خالصة لوجه الله ، وإلا حلّت اللعنة على صاحبها .

عماد : إذ يقول ؟ يا أستاذ كامل .

كامل :

« إذا رام كيداً بالصلاة مُقيمها ... فتاركُها عمداً إلى الله أقربُ »

ولن يصح تديُّنُ الإنسان — فيما يرى — إذا اقتصر على الصلاة والصوم ، دون أن تخلّص نفسه من أرجاسها ، وتكفّ أذاها عن الناس .

عبد الغنى : وما الذى يحضُرُك من شعره يا أستاذ كامل ؟

كامل :

« ما الدّين صومٌ يذوب الصائمون له
ولا صلاةٌ ، ولا صوف على جسدِ
وإنما هو ترك الشر مطرحاً
ونفضُك الصدرَ من غِلٍّ ومن حسد »

عماد : أو يقول ؟

كامل : ما أكثر ما يقول فى هذا المعنى — يا صاحبىّ — وما أبرع قوله فى هذا الباب :

« إذا الإنسان كفّ الشر عنى ... فسقياً — فى الحياة — له ورعيا
ويدرسُ — إن أراد — كتاب موسى
ويضمر — إن أحبّ — ولاء شعيا »

عبد الغنى : فهل كان يصوم يا أستاذ كامل ؟

كامل : كان صائمَ الدهر ، يصوم عن الأكل كما يصوم عن الأذى والشر .

عبد الغنى : وماذا قال فى هذا الباب يا أستاذ كامل ؟

كامل :

« أنا صائم طول الحياة ، وإنما
فِطرى الحِمام ، وذاك حين أُعَيِّدُ »

٢ — عقيدة المعرى

عماد : إذن يا أستاذ كامل كيف تعلل اتهامه فى دينه ؟

كامل : لم يتهمْهُ فى دينه إلا قاصرٌ أو مُقصِّرٌ فى درسه ، أو راغبٌ فى إذاعة مبادئ الشك على لسان غيره ، أو متسرّع فى فهم مراميه ، أو رجل يُحسن الظن بآراء بعض الباحثين ، فلا يُمنّى نفسه بمناقشتها وتمحيصها ، أو ببغاء يُردد ما يسمع بلا تعقل .

عبد الغنى : فكيف تعلل قوله :

« فى القدس قامت ضجة ... ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق ... وذا بمئذنة يصيح
كلٌّ يعلل دينه ... ياليت شعرى ما الصحيح؟ »

كامل : إن السخرية واضحة فى الأبيات كما تريان ، ولعلكما تذكران الآية الكريمة : « كل حزب بما لديهم فرحون » كما تذكران الآية « وإنّا — أو إيّاكم — لعلى هُدًى أو فى ضلال مُبين » . ولن يدور بخلدِ كائنٍ كانَ : أن الرسول (ص) كان شاكّاً فى أنه على هدى ، وأن مجادليه فى ضلال مبين .

عبد الغنى : فكيف تعلل اضطرابه وتناقضه فى شعره يا أستاذ كامل ؟

كامل : لم يضطرب أبو العلاء ، ولم يتناقض . ولكن اضطرب فى فهمه المتسرعون وتناقضوا ، ورأى بعضهم — فى مرآة نفسه المضطربة — صورته ، فحسبها صورة المعرى ، وهو منها برىء .

على أن المخلصين فى فهمه ، ممن رموه بالتناقض ، نسوا الحكمة التى درسوها فى مستهل حياتهم ، وهى : « لكل مقام مقال » فكان مثلهم مثل من يتنصت إلى رجل : فيسمعه مرة يقول لولده مُغرياً : « لا شك عندى فى أنك باذلٌ فى دروسك يا ولدى قصارى جهدك وسيكون لك إن شاء الله شأن عظيم . ولتبلغن بجدك أعلى المراتب وأسماها » .

ثم تسمعه مرة أخرى يقول له :

« لن تنجح يا ولدى ما دمت مستسلماً لكسلك ، متمادياً فى غيك ، مسترسلا فى تهاونك » أو يقول له غاضباً ثائراً : « والله لا أفلحت أبداً » .

فيزعم أن الوالد متناقض مضطرب ، لأنه يتمنى لابنه النجاح مرة والاخفاق مرة أخرى ، وينسى أنهما أسلوبان متباينان يهدفان — على اختلافهما — إلى غرض واحد : هو حفز الولد إلى الخير . وكلاهما يعبر عن حب أبيه لولده وحرصه على نجاحه .

* * *

وما أدرى — أيها الصديقان — كيف يشك فى صدق إيمان هذا الرجل ، دارس متعمق حصيف ، يجمع بين الإنصاف والإحاطة والفهم ؟

كيف يشك فى حسن عقيدة من يقول :

أقر بأن لى رباً قديراً ولا ألقى بدائعه بجحد

أو يقول ويصل إلى ذروة الإبداع :

تعالى الله ، وهو أجل قدراً من الإخبار عنه بالتعالى

إلى آخر ما يقول ، فما أننا بحاجة إلى أن أتلو ما يزخر به شعره ونثره من الآيات الدالة على سلامة عقيدته ، وخلوصها من الشكوك والأوهام .

٣ — الفطرة المؤمنة

وقد علمتما — يا صاحبىّ — أننى عرضت لهذا الموضوع فى مناسبات عدة لا سيما فى رسالتَى الغفران والهناء ، وكتابى على هامش الغفران ، وحديقة أبى العلاء وربما أنجزت كتاب « عقيدة المعرى » وأعددته للطبع بعد قليل .

حسبكما الآن قوله فى رسالة الغفران ، ولعله — على وجازته — أبرع ما رأيت فى هذا الكتاب ، لأنه يقرر فى بلاغة علائية فائقة : أن الإنسان مؤمن بغريزته ، وأن الله سبحانه قد وهبه فطرة مؤمنة تعصمه — إذا لاذ بها — من الزيغ والإلحاد ، كما يعصم الحصن الحصين من يلوذ به ويحميه من المغيرين وإليكما ما قال :

« والتأله (يعنى : الإيمان بالله) موجود فى الغرائز ، يكون لهنّ كالأجاء الحرائز (يعنى : كالحصون الحصينة كما تعلمان) » وبهذه الجملة البارعة يلتقى المعرىُّ بما أبدعه لامرتين فى قصيدة « الخلود » وهى من غرر الشعر الفرنسى وروائعه .

كما يلتقى مع شكسبير فى قوله : « كل ما نلقاه حسنٌ إذا حسنت خاتمته » . فيقول :

« إن ختم الله بغفرانه فكل ما لقيته سهل »

لا أدرى كيف يجرؤ منصف على اتهام مثل هذا الرجل الطاهر فى عقيدته . ألا ما أصدق المثل :

« رمتنى بدائها وانسلت »

ورحم الله ابن الرومى القائل :

ما خمدت نارى ، ولكنها ألفت نفوساً نارها خامده

قد فسدت فى دهرنا أنفس تستبرد السخنة لا البارده

٤ — شيطان الشعر

عبد الغنى : هل تحسن نظم الشعر وأنت صائم يا أستاذ عماد ؟

عماد : كلا فإن سطوة الجوع تكفل هدم كل بيت من الشعر أحاول بناءه . أو لعل شيطان شعرى يسجن فى شهر رمضان مع سائر إخوانه الشياطين ، وإن كنت أنا نفسى مثات دور شيطان فى هذا الشهر المبارك .

عبد الغنى : وكيف كان ذلك يا أستاذ عماد ؟

عماد : فى ليلة مظلمة من أحد رمضانات الحرب ، التى حرموا فيها النور عدت إلى منزلى متأخراً وكنت مرتدياً بذلة سوداء ، وبينما أنا واقف أمام الباب والشارع مقفر أقبل شخص